

## التوعية الأسرية ودورها في مواجهة التحديات الاجتماعية المعاصرة

الدكتور جمال أحمد بادي \*

### ملخص المقال:

تواجه المؤسسة الأسرية تحديات معاصرة كثيرة أدت إلى تفكك الروابط الأسرية وازدياد معدلات الطلاق وقلّة الانسجام بين الزوجين.

هنا يبرز دور التوعية الأسرية في فهم طبيعة تلك التحديات وحسن إعداد أجيال المستقبل لحياة زوجية أكثر تفاهما وسعادة .

ولكثير من الجامعات بما فيها الجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا خبرة طيبة في تدريس مادة التوعية الأسرية لطلابها مما يؤمل أن يحدث أثراً إيجابياً في تقديم الخبرة الأسرية اللازمة للطلاب لتهيئتهم لتحمل مسؤولية أكثر فعالية ونضجا في مستقبل حياتهم الأسرية .

فما هي أهم هذه التحديات التي تواجه الأسرة المسلمة؟ وما هي سماتها؟ وما دور التوعية الأسرية في مواجهتها وتجاوزها؟ .

تحاول هذه الورقة الإجابة على هذه الأسئلة وتسعى لتقديم بعض التقنيات والمهارات التي تعين الزوجين على إيجاد مناخ عائلي أفضل يتيح لكلا الطرفين فهم الآخر بصورة أكثر وضوحا واستيعابا.

عرجت الورقة على الصورة التي يحاول الإعلام المعاصر رسمها للأسرة وأثرها السلبي على إيجاد مفاهيم أسرية خاطئة.

ثم وضحت اختلاف شخصية المرأة اليوم عنها بالأمس نتيجة عدة عوامل أهمها ازدياد نسبة التعليم لدى النساء المسلمات المعاصرات مما أتاح لهن بناء شخصية جديدة تختلف تماما عن الشخصية التي عهدتها الرجال وبيّنت ما ترتب على ذلك من اختلاف طريقة التعامل بين الزوجين وضرورة مراعاة ذلك وتحويله إلى شيء إيجابي.

ومن التحديات المعاصرة التي تواجه الأسرة تطور الحياة وسرعة تغير كثير من أوجه الحياة المعاصرة بما تحمله من تكنولوجيا وتقنية وقد ألفت الورقة ظلالات على دور هذا التحدي في إعادة تشكل الكثير من المفاهيم الأسرية والتي قد تؤثر سلبا على الحياة الزوجية. وقدمت بعض الاستراتيجيات المستنبطة من قواعد وأصول التوعية الأسرية التي تفيد في هذا الشأن.

ومن التحديات المتجددة - والتي لا تجد اهتماما كافيا في عالمنا الإسلامي - وهي مزيج مركب من قضايا جزئية للتحديات السابقة - التوقعات قبل الزواج من كلا الطرفين للآخر والتي كثيرا ما تكون توقعات مثالية لما يجب أن يكون عليه الآخر، ثم سرعان ما يكتشف أحد الطرفين أو كلاهما تبخر تلك الأحلام المتوقعة ويصطدم بالواقع المغاير. ناقشت الورقة

\* قسم الدراسات العامة بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا.

دور كل طرف في مثل هذه الحال، وبيّنت كيف يمكن تقليل الفجوة بين التوقعات والواقع، مع إلقاء الضوء على دور التوعية الأسرية في تجاوزها.

وإذا كانت هذه التحديات قد واجهت مؤسسة الأسرة في شكلها المصغر فماذا عن شكلها الأوسع والمتمثل في تعدد الزوجات؟ ختمت الورقة بدراسة هذه الجزئية ونهت على أهم التحديات التي تعترضها.

اعتمدت الورقة المنهج الاستقرائي مصحوبا بالمنهج التحليلي النقدي في التعامل مع مفردات الموضوع. كما تم استعراض ما وصلت إليه بعض البحوث الغربية من نتائج في التوعية الأسرية والتي يمكن الاستفادة منها في هذا المجال وذلك في إطار قيمنا وشرعنا الحنيف. مقدمة:

تتبع أهمية الأسرة من كونها: "مظلة إنسانية ضرورية لبناء النفس، وممارسة المعيشة الهانئة في الحياة، ورفد نظام المجتمع بعناصر البناء وإبقاء النوع الإنساني"<sup>(1)</sup>.

وانتظام أمر الأسرة في المجتمعات هو دليل تحضر وتقدم، يقول ابن عاشور: "انتظام أمر العائلات في الأمة أساس حضارتها وانتظام جامعها، فلذلك كان الاعتناء بضبط نظام العائلة من مقصد الشرائع البشرية كلها"<sup>(2)</sup>. من هنا فإن الاهتمام بالأسرة والعناية بها وتطوير آليات عملها كمؤسسة اجتماعية وبما يواجهها من تحديات يعد أمرا واجبا شرعا وعقلا وعرفا.

وهذا يوجب على العلماء والدعاة والفئة المثقفة في المجتمع عموما أن يتفهموا مطالب الشريحة العريضة في المجتمع لا أن ينظروا إلى العالم من خلال منظارهم الذي ألفوه، والمثاليات التي نشأوا عليها، والخلفيات التي كونت ثقافتهم وشخصياتهم. يقول أحد المفكرين المعاصرين في هذا الخصوص: "سيكون العلم لتحسين حياة الناس إذا استطاع الذين يمسون بناصية المعرفة، وابتجونها، أن يتفهموا الحاجات الحقيقية للسواد الأعظم من الناس، وهي حاجات متنوعة وكثيرة. وتبدأ المشكلة في أن كثيرا من المثقفين والتربويين، يتصورون مشكلات الناس من أفق الثقافة التي كونت شخصيتهم العلمية، على مستوى التخصص، وعلى مستوى الخلفية الحضارية للمؤسسات التي تخرجوا فيها"<sup>(1)</sup>.

تعاني المؤسسة الأسرية المسلمة اليوم من كثير من التحديات التي تعصف بها، وتؤثر على استقرار كيانها. ويأتي الطلاق في مقدمة التحديات التي تواجه نواة المؤسسة الاجتماعية اليوم حيث تشير الإحصائيات إلى ازدياد معدل الطلاق في العالم كله. والعالم العربي والإسلامي لا يثن عن ذلك الأمر. فنسبة الطلاق في المملكة العربية السعودية تصل إلى 24% وفي الكويت إلى 35% وفي عموم المجتمع الخليجي يفشل زواج من كل ثلاث حالات<sup>(2)</sup>.

(1) وهبة الزحيلي: الأسرة المسلمة في العالم المعاصر "دمشق، دار الفكر، 1420 هـ / 2000 م" ص 21.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر: مقاصد الشريعة الإسلامية، "عمان، دار الفجر، ط1، 1420 هـ/1999 م" تحقيق محمد الطاهر الميساوي. ص 317.

(1) عبد الكريم بكار: حول التربية والتعليم، الرياض، دار المسلم، ط1، 1420 هـ/ 1999 م. ص ص 143-144.

(2) [www.nahed.net/wa4.html](http://www.nahed.net/wa4.html).

وما يعيشه العالم العربي والإسلامي ليس استثناء كما سبقت الإشارة، فظروف العالم تتشابه في كثير من جزئياتها لتتشابه التحديات، يقول بعض الباحثين في مجال الدراسات الأسرية الغربية:

"إن معدل الطلاق الحالي ما هو إلا مؤشر على أن الزوجات تواجه مشاكل لأن الحياة مملوءة بالضغوط والتحديات من جهة ولأنه من الصعوبة أن تكون هناك علاقة بدون خلافات فلا يصعب أن نتصور أن كل الأزواج والزوجات يواجهون مشاكل أسرية، بعض هذه المشاكل يمكن اعتباره مضايقات صغيرة نسبياً، وبعضها الآخر مشاكل حادة وتهدد استقرار الزواج"<sup>(3)</sup>.

وقد دلت الدراسات أن بعض الزوجات غير السعيدة إنما تستمر بسبب وجود الأولاد ولأجلهم ولاعتقاد الناس أن الزواج التزام طويل الأجل<sup>(1)</sup>.

ونجد أن الكثير من الدراسات - كما في الدراسة المذكورة آنفاً - ركزت على مجموعة من العوامل نحو المرض بأشكاله المختلفة، والأولاد، وتقاسم الأدوار الأسرية، والعمل، ونوع الدخل أو المشاكل الاقتصادية، والمشاكل الجنسية. غير أن هناك عوامل وتحديات أخرى مهمة ستركز عليها هذه الورقة.

#### دور الجهاز المرئي "التلفاز":

يعد التلفزيون مصدراً للمعلومات ووسيلة للترفيه، ولا شك أنه يحوي مادة نافعة ومفيدة للمشاهد، غير أنه سلاح ذو حدين، فبالرغم من إيجابياته إلا أن له سلبيات كثيرة على من يشاهده دون تبصر وتحكم.

يصف أحد المؤلفين المعاصرين الأثر السلبي للتلفاز والفيديو على الحياة الزوجية بقوله: "لم يعد سرا ذلك الأثر الشنيع الذي يحدثه التلفزيون والفيديو في الحياة الزوجية، فكم من خلاف قام بين الزوجين بسبب البرامج التلفزيونية وأفلام الفيديو، وكم تحول التلفزيون والفيديو بأزواج من سمات الطهر والحياء، إلى صفات الدناءة والوقاحة، وكم من بيت كانت تخيم عليه السعادة، والاحترام والمودة، انقلب بين يدي الفيديو والتلفزيون إلى بيت النكد والكرهية، والخصام، وكم من أسرة قامت دعائمها على الحب والإيثار والتفاهم قذف بها الفيديو والتلفزيون في جحيم البغضاء والخصام والمشاحنة، وكم من زوجين تعاهدا على العيش معا حتى الممات قادهما الفيديو والتلفزيون إلى خيانة العهد، وانقطاع الود فما لبثا أن انفصلا بوحى تلفزيوني آثم"<sup>(2)</sup>.

كما يرى بعض الباحثين أن التلفاز يقلل من غرس التفاهم بين الأزواج، وأنه لا يساعد على تقوية الأواصر الأسرية. كما أنه يساعد على قبول الخرافة لكثرة ما يقدمه من الأفلام والمسلسلات غير الواقعية القائمة على الخيال غير البناء الذي يتمرد على الحقيقة<sup>(1)</sup>.

(3) Patrick C. McKenry & others: Families and Change, USA, SAGE Publications, 1994. p. 40.

(1) المصدر السابق نفسه ص 44.

(2) مروان كجك: الأسرة المسلمة أمام الفيديو والتلفزيون، القاهرة، دار الكلمة الطيبة، ط 3، 1410 هـ / 1989 م، ص 163-164.

(1) المصدر السابق نفسه ص 172-173.

لقد قام التلفاز على زرع واستحداث ثقافة خاصة للنساء، وصورهن صورة نمطية مغايرة للثقافات السابقة، وهي صورة تعتمد الخيال، وتقوم على التشويق والإثارة، وقد أظهر المرأة على أنها كائن مستهلك غارق في النعيم واللذة، واستغل المرأة في برامج معينة كبرامج المسابقات والفوازير، كما استغلها في عالم الدعاية، وأظهرها في أبها زينتها وحليها لتكون فرجة للرجل. هذه أهم النتائج التي قررتها مجموعة بحوث غربية بعنوان "التلفاز وثقافة المرأة"<sup>(2)</sup> وهو كتاب يستحق الترجمة إلى العربية.

كما أن التلفاز دورا مهما في تشكيل المفاهيم الخاطئة والتي ينتج عنها سلوكيات سلبية كالتى أشار إليها المرجع السابق، يقول الدكتور جيري ماندر - بعد خبرة ثلاثين سنة في مجال الإعلام الغربي - في كتابه "أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون": "يضع التلفزيون تصورات في عقولنا أكثر من أي مؤثر فردي آخر. وهنا لا نقدر تماما أهمية قيام الآخرين بوضع صور وتصورات بديلة أو معادلتها بتلك التي نملكها. وهنا تبرز الحقائق المخيفة المتمثلة بتدخل التلفزيون في قدراتنا الذاتية وفرضه علينا التصورات التي يريدنا وتدخله في التصور البشري لعالم واضح حقيقي يقع خارج عقولنا"<sup>(3)</sup>.

إن التنبيه للأثر الفكري السابق الذي ينتج عن مشاهدة التلفاز ودوره في توجيه السلوك الإنساني سلبا هو في غاية الأهمية، وحرى بأن تجرى حوله المزيد من الدراسات والبحوث لإرشاد الناس وتوعيتهم حتى لا يكونوا ضحية لما يشاهدونه بقصد التسلية والمتعة وتمضية الوقت فيعود على حياتهم بالانتكاس والمآسي. ويمكن تقسيم الأثر السلبي للتلفاز - في هذا المجال - على مستويين:

**المستوى الأول:** رسم صورة للعلاقة الزوجية المتوقعة بناء على العلاقة الغرامية التي قبلها وهو ما يقدم في الروايات الغرامية وأفلام الحب والتي ترسم صورة لفتى الأحلام وهو يعد بكل ممكن وغير ممكن مما يرسمه خيال كاتب السيناريو. وهنا يقدم التلفاز صورة رومانسية غاية في الروعة، وهو مما يساعد في بناء التوقعات الخيالية المفرطة التي ستأتي مناقشتها لاحقا.

كما يمكن ملاحظة الأمر نفسه فيما يسمى بالفيديو كليب من تصوير بديع لمعاني كلمات الأغاني العاطفية وتجسيدها في ما يشبه الفلم والذي يعمل على تأجيج عواطف المحبين لتجاوز كل معقول من حدود الاعتدال في الحب، أو يهيج الشباب والشابات - والذين لم يمرؤا بتجربة غرامية بعد - نفسيا ليكونوا أبطالاً لقصص غرامية تماثل وتحاكي ما يشاهدونه ويسمعونه ويملاً عليهم كيانهم ووجدانهم من المشاعر الفياضة التي تقتحم مداركهم وترسم لهم مفهوما خياليا بعيدا عن الواقع لمصطلح الحب.

**المستوى الثاني:** رسم صورة غاية في المخالفة للصورة السابقة للعلاقة الزوجية القائمة فعلا. وهي الصورة التي يكون فيه الزوج متسلطا وعنيفا وضاربا لزوجته، وتكون العلاقة الزوجية مشحونة بالمشاجرة، والمشاحنة والملاسنة، وعدم التوافق والتناغم، ثم محاولة تسويق تلك الصورة وتنميطها بتكرارها وجعلها كأنها حقيقة واقعة وهو أمر نشأ نتيجة الاتجاهات

(2) Television and Women's Culture, edited by: Mary Ellen Brown. SAGE publications London, 1990.

(3) جيري ماندر: أربع مناقشات لإلغاء التلفزيون: ترجمة سهيل منبينة ص 221

المعاصرة للإعلام في مفهوم "الترفيه" حيث إن الترفيه أصبح الغاية القصوى للتلفاز، وبدأ البحث عن مسارات جديدة مبدعة كتطبيقات للمفهوم فكانت النتيجة أن أصبحت المشاكسات الأسرية والصراعات العائلية وكل ما يمكن أن يستنكر عرفا في المجتمع كالخيانة الزوجية، وانعدام الوفاء، وقلة الحياء، كل ذلك أصبح مادة خصبة لتحقيق الترفيه وجذب المشاهد دون اكتراث لما ينتج عنه من ردود أفعال نفسية ومآلات سلبية.

ويأتي دور التوعية الأسرية لمواجهة هذا التحدي ببيان حدود العلاقة الحقيقية بين أطراف العلاقة الزوجية، وكيف يتم بناؤها وتشبيدها، وإعادة رسم صورة لمفهوم الحب تكون أقرب للحقيقة والواقع والاعتدال، مع بيان سلبيات التلفاز السابقة ليكون شبابنا وشاباتنا على وعي تام بطبيعة عصرهم وما فيه من تحديات.

### المرأة اليوم غير المرأة بالأمس:

النساء في الإسلام شقائق الرجال، يشاركنهم الحياة بفاعلية تامة، ولهن دور إيجابي في المجتمع بل عليهن يقوم عماده، وتتأسس أركانه ويشيد بنيانه.

وقد رسم الإسلام صورة ناصعة للعلاقة الزوجية واعتبرها ميثاقا غليظا<sup>(1)</sup>.

فهي علاقة مبنية على الود والرحمة والتفاهم وحسن المعاشرة. يقول تعالى: (وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ) (2).

ودور المرأة فيها هو كونها سكن، ورحمة، ولباس، (هن لباس لكم وأنتم لباس لهن). (3).

إنه التآلف والاجتماع والتعاون لتسيير دفة الحياة معا للوصول بها إلى بر الأمان، وإلى تحقيق مقاصد الشريعة في مؤسسة الأسرة.

إلا أن تلك الصورة التي أنشأها الوحي وتمثلت وتجلت عمليا في خير قدوة للبشر محمد صلى الله عليه وسلم الذي قال في الحديث الصحيح: "خيركم خيركم لأهله وأنا خيركم لأهلي" قد زاحمها غبش الأعراف والتقاليد، فأضحت صورة المرأة في قطاع عريض من مجتمعاتنا العربية والإسلامية صورة سلبية ألا وهي صورة الانتقاص لها باعتبارها كائن اجتماعي من الدرجة الثانية خلقت لخدمة الرجل وتلبية رغباته فتتم معاملتها على هذا الأساس، ومما ساعد على بقاء هذه الصورة وتسويقها وقبولها في أجيال مضت وقطاع عريض من أجيال عصرنا هو تربية البنات في البيت والمدرسة والمجتمع ككل على هذا الأساس فليس أمام هذه الإنسانة المسكينة إلا الاستسلام لقدرها والرضا والقبول بواقعها إن أرادت حياة زوجية هادئة.

ومما ساعد - بشكل غير مباشر - على رسم الصورة النمطية السلبية للزوجة اعتبار بعض - ولا أقول كل - الفقهاء النكاح رقا<sup>(1)</sup>، والمهر عوضا. يقول ابن عاشور في الرد على هذا الاختيار: "فليس المهر في الإسلام عوضا عن البضع

(1) سورة النساء: آية 21.

(2) سورة الروم: آية 21.

(3) سورة البقرة: آية 21.

(1) عمر رضا كحالة: مصدر سابق. ص 268.

كما يجري على ألسنة الفقهاء على معنى التقريب، إذ لو كان عوضاً لروعي فيه مقدار المنفعة المعوض عنها، ولوجب تجدد مقدار من المال كلما تحقق أن المقدار المبذول قد استغرقت المنافع الحاصلة للرجل في مدة بقاء الزوجة في عصمته، مثل عوض الإجارة<sup>(2)</sup>.

إنّ هذه الصورة - بكل أبعادها المذكورة - النمطية السلبية للمرأة لم تعد قادرة على الصمود أمام أعاصير التغيير والتحويلات الاجتماعية. فنسبة التعليم بين النساء كانت متدنية جداً في السابق وهو عامل ساعد على تقبل تلك الصورة المنمطة، فحق المرأة في التعليم هو أهم الحقوق غياباً في إطار تلك الصورة السلبية، أما اليوم فقد ازدادت نسبة التعليم بين الفتيات إلى حد كبير - وإن كانت النسبة لا تزال قليلة إجمالاً - مقارنة بالسابق، وازداد عدد الفتيات اللاتي يحملن شهادات جامعية. وترتب على ذلك زيادة ثقافة المرأة وزيادة إطلاعها وخاصة مع وجود الانترنت والثورة المعلوماتية الكبرى وتبادل الآراء على غرف البال توك والتشات أو الحوار، ومع العولمة الثقافية وانتفاء الحواجز والسدود أمامها، الأمر الذي أصبحت فيه امرأة اليوم غير امرأة الأمس. زد على ذلك أن المواضيع التي تخص المرأة وحياتها وسلوكها ومشاكلها أصبحت تطرح على المجالات والصحف وفي المؤتمرات وعلى صفحات الشبكة والفضائيات مما أتاح لأكبر عدد من النساء الإطلاع على ما ينشر من معلومات، بل تعدى الأمر إلى المطالبة بالتسوية في كثير من الحقوق بالرجل بما فيها ممارسة الحقوق السياسية والعمل والحريات والابتعاث للدراسة بالخارج، كما أطل - من جهة أخرى - أهل الثقافات الأخرى بما فيها الغربية والإيديولوجيات المختلفة برؤوسهم عبر القنوات الفضائية وصفحات الشبكة العالمية ومختلف وسائل الإعلام ليدلوا بدلائهم، ويروجوا لأرائهم ووجهات نظرهم والمرأة تسمع وترى كما يرى الرجل ويسمع بل تشارك عبر الهاتف وتسمع العالم صوتها ورأيها.

كل ذلك غيّر من صورة المرأة اليوم ومن شخصيتها وسلوكياتها ونمط حياتها وعاداتها وتفكيرها الذي لم يعد بدائياً كما عهده الرجل حيث لم تعد صورتها الصورة التي يظن أو يريد.

هل يتجاهل المجتمع هذا التغيير؟ .

وهل يتجاهل الوالدان هذا التحول؟ .

وهل يتجاوز الرجل هذه النمطية الجديدة اللانمطية؟ .

وما دور المدرسة والجامعة والمعلم والمعلمة؟ وما دور الدعاة والعلماء؟.

الذي حصل في السابق هو التجاهل لهذه الحقيقة، ونسبة كبيرة من المشاكل الزوجية وحالات الطلاق هو انعكاس لهذا الأمر. نريد معشر الرجال من المرأة أن تبقى كما عهدناها في مخيلتنا وتصوراتنا وكما تصفها كتبنا وكما توصيها به أمهات القرون السابقة في كتب الوصايا، وكما صورتها كتب تراثنا ولكن في عالم متغير جداً وفي ظل ظروف ومستجدات تختلف تماماً عن الأمس الذي نعرفه، بل وفي ظل نشأة مغايرة تماماً عن النشأة التي رسمتها تلك الأقلام والآراء. وفي المقابل لم ينطور المجتمع أو بالأحرى لم يواكب المجتمع التطور والتغيير، فلم نهتم معشر التربويين والدعاة ببناء علاقات اجتماعية

(2) ابن عاشور: مصدر سابق. ص 321.

أفضل ولم نسلح شبابنا بالمهارات اللازمة للاتصال بين الأزواج، ولم نعلمهم المهارات والاستراتيجيات التي تعدهم لعالم متغير تغرقه التحديات وتحوطه من كل جانب، بل لم نعدهم أصلاً ليحيوا حياة جديدة تختلف عن سابقتها، فكان ما كان من الإحباطات، والاكتئاب، والضغط النفسية، وعدم المقدرة على التأقلم النفسي والاجتماعي والفكري مع عالم جديد. وكان الطلاق والفراق بين كل زوجين لم يكونا مستعدين لحياة زوجية تختلف عما في أذهانهم ومخيلاتهم وتوقعاتهم.

إنه ليتعين اليوم أكثر من أي وقت مضى على كافة التربويين والدعاة والعلماء سرعة تدارك ما فات والعمل على تقليل وتقليص آثار ما سبق من التداعيات السلبية الناتجة عن التفريط في التعامل مع الواقع بتغييراته وتقلباته، وإيجاد الاستراتيجيات العملية لمواجهة الحياة بظروفها وتحدياتها وتغييراتها والتي تمكن أبنائنا وبناتنا من أن يحيوا حياة أفضل تظلها القيم وترسم معالمها قواعد الدين الحنيف في ظل عالم متغير، وتأخذ بأيديهم نحو حياة زوجية سعيدة ملؤها التوافق والتناغم والمودة. وهنا أمران يتعين القيام بهما ضمن برامج ومقررات التوعية الأسرية، الأول: تغيير تلك الصورة السلبية التي يحملها كثير من الرجال عن النساء، وهو يتطلب جهداً كبيراً على كافة المستويات والقطاعات الاجتماعية ومنابر التوجيه كالمسجد، والمدرسة، والإعلام بشتى أنواعه.

الثاني: ويترتب على الأمر السابق وهو إعادة النظر في طريقة تربية البنات في البيت والمدرسة وحسن إعدادهن للقيام بدور أكثر إيجابية وفعالية في المجتمع، دور يكون لهن فيه نصيب وحظ وافر في الحضور والعمل والرأي. يقول أحد المفكرين المعاصرين: "واعتقد أنه قد آن الأوان للانشغال بتنمية المرأة المسلمة، وتأهيلها للوظائف التربوية والاجتماعية التي تنتظرها؛ ولا بد أن نعوضها عن الإهمال السابق الذي كانت تلقاه من شرائح المجتمع كافة!"<sup>(1)</sup>.

**الحياة والتغير:**

الحديث السابق يقودنا إلى مناقشة تحد آخر له علاقة وطيدة به ألا وهو التغير الذي أصاب الحياة وتسارعت دقاته ودوران عجلاته فأثر على الحياة الاجتماعية في كل جوانبها.

إن ثورة المعلومات والاتصالات، وما أحدثه ويحدثه التقدم العلمي والتقني في كل المجالات الحياتية، اقتحمت على الناس حياتهم، وغيّرت كثيراً من مفاهيمهم وتصوراتهم، وأثرت على سلوكياتهم وتصرفاتهم الشخصية والأسرية. وكان عدم الاستعداد لهذه التغيرات، وتركها تقتحم حياتنا بكل سكون ودعة، تعمل ما تشاء وتعيد تشكيل ثقافتنا بطريقة عشوائية دون تدخل أو عناء من متقفينا ودعاتنا ومؤسساتنا؛ كل ذلك أحدث ربكة في مجتمعاتنا. وفي غياب الفهم السليم وانعدام الاستراتيجيات التي تساعد على المواءمة بين الجديد والأصيل، وبين الحاضر والماضي؛ حصلت المفارقات، ووقع الخلط وعدم الانسجام بين قديم نشأنا عليه وجديد دلف دون استئذان.

ومما زاد في الخلط والارتباك في مواجهة هذا التحدي، هو كونه ذا حدين، حيث يحمل جانباً إيجابياً ومقبولاً ومفيداً، وآخر سلبياً ضاراً.

(1) عبد الكريم بكر: مرجع سابق. ص 267.

فما هي أهم المتغيرات التي أثرت على الأسرة سلباً؟

وما هي المستجدات التي شكلت تحدياً جديداً لمؤسسة الأسرة؟

وكيف يمكننا التعامل معها بحكمة وروية لتجاوز سلبياتها مع الاستفادة من إيجابياتها؟ تقرر بعض الدراسات وجود نوعين من المتغيرات في حياتنا.

**الأول:** "المتغيرات التي تأتي رغماً عنا وتعرض مسيرة حياتنا السعيدة رغم ما نبديه تجاهها من مقاومة ومنها: التقدم بالعمر، تدهور الصحة، تناقص الجمال، تزايد عدد الأبناء وكبر أعمارهم، وازدياد مشاكلهم، الفتنور في المشاعر، الإفلاس في الموارد المالية، هذه وغيرها من المتغيرات التلقائية أو الطارئة تقتحم يومياً وبعنف بهجة الحياة التي نعيشها فتفعل فيها الأفاعيل، مؤثرة على السعادة، مؤدية إلى التذمر والشكوى والنكد، ما لم نتصرف حيالها تصرف العقلاء.

ويزداد الأمر سوءاً إذا ما علمنا تركيبة نفسية الإنسان العربي المشهور بعاطفته وانفعالاته وردود أفعاله الحادة والسريعة مما يفقد معه أقطاب الأسرة في بعض الأحيان زمام السيطرة والتحكم بالواقع، ونحن نعيش في زمن صعب مختلف يشحن النفس ويضغط على الأعصاب، والحديث عن انفراج فيه أضحى ضرباً من من ضروب العبث وإضاعة الوقت"<sup>(1)</sup>. ويرى الكاتب السابق أن أعظم خطأ نرتكبه في حق أنفسنا وشركاء حياتنا هو تطرفنا في التعامل مع الأحداث والمستجدات والمتغيرات والذي له عدة صور أهمها:

- تحويل هذا المتغير إلى مشكلة
  - التهويل في حجم المشكلة والانكفاء على الذات حزناً وتأثراً.
  - تشعيب المشكلة وذلك باختلاق أشياء لم تكن موجودة في المشكلة أصلاً وتحميلها من النتائج أكثر مما تحتمل، ومحاولة مدها وتفريغها لإفراز مشاكل جديدة قائمة بذاتها.
  - النظرة السوداوية للأمور حيث تصبح كل الأشياء "حتى المفرحة منها" مدعاة للانفعال والنكد.
  - تجريم الطرف الآخر: حيث يحمل أحد أطراف الحياة الزوجية الطرف الآخر جزءاً من مسؤولية المشكلة إن لم تكن كلها.
- ويؤكد الكاتب على أن "مشاعر السعادة في حقيقتها نابعة من نفسياتنا ومدى استعدادها لتقبل الأحداث بإيجابية وتفاؤل، فلا شك في أن كل شيء نراه في حياتنا يحمل دائماً وجهين وتفسيرين أحدهما مظلم والآخر مشرق، والعبرة في فلسفتنا في النظر إلى الأمور"<sup>(1)</sup>.

لكن يبقى في نظري عجزنا عن تكوين فلسفة تمكننا من النظر إلى هذه المتغيرات بشكل سليم، وتعيننا على الاستفادة منها مع الحفاظ على هويتنا، ودون أن تربك حياتنا بإساءة استخدامها، ودون أن نخسر قيمنا ومرتكزات ثقافتنا. كل هذه الأهداف يمكن تحقيقها من خلال التوعية الأسرية.

**النوع الثاني من التغيير هو تغير ظروف الحياة الخارجية:**

<sup>(1)</sup> www.al-farha.com/articles.

<sup>(1)</sup> الموقع السابق على الشبكة الدولية نفسه.

تقرر إحدى الدراسات الاجتماعية بأن التغييرات الاقتصادية والسياسية والديموغرافية والتقنية وأحوال العالم كلها مما يؤثر على الاختلاف والتنوع في الأسر المعاصرة (1).

كما تقرر بأن التكنولوجيا غيرت من كثير من مؤسسات المجتمع وفي مقدمتها الأسرة (2).

وترى زوجة في إحدى المقابلات "أنها شخصياً تعاني من هذه المشكلة بسبب انشغال زوجها الدائم ، على الرغم من انتهاء عمله في الثانية ظهراً، إلا أنه ونحن معه ضحايا من ضحايا إساءة استخدام التكنولوجيا فهو يجلس لمشاهدة التلفزيون طوال فترة مكوثه في المنزل ولا يحب أن يقاطعه أحد أثناء متابعته للتلفزيون، وهو دعوب في متابعة البرامج بكل أنواعها، ومتابعة الانترنت والمشاركة في "غرف الشات" ولم يعد أمامنا، أنا وأطفالي، إلا الخروج مع السائق بمفردنا "فهو يعرف أمراض أولادي أكثر من زوجي". وتعلن أخرى صراحة، كرهها وحقدتها على التكنولوجيا التي تعتبرها أهم الأسباب التي اختطف زوجها وتقول: إنهما كانا في بداية حياتهما الزوجية أكثر التصاقاً يذهبان إلى زيارات الأهل والأصدقاء أو إلى المنتزهات بشكل مستمر وكان يحضر قصص الأطفال ونقرأها على أبنائنا، أما الآن فهو يمضي جل وقته أمام الجهاز الذي أكرهه وهو الكمبيوتر لقد اكتشفت أنه يقضي وقته في أحاديث في بعض المواقع ومن ضمنه فتيات! (3).

وللتوعية الأسرية دور في التعامل مع هذه المشكلة، وأهم قضية تستحق التأكيد في هذا المقام هي ضرورة أن يبين أساتذة مادة التوعية الأسرية لأجيالنا الناشئة التغيير الذي يعترض حياتهم والذي يتم بسرعة مذهلة وأثر هذا التغيير على مجريات حياتهم وسلوكياتهم. يقول أحد المفكرين المعاصرين في هذا المجال: "التحرك في الحياة الاجتماعية هو الأصل، وكلما كان التغيير بطيئاً كان التلاؤم معه أيسر، وأقل خطورة. في زماننا هذا يشهد كل شيء تغيراً سريعاً، لم تخبر البشرية نظيراً له من قبل، وذلك بسبب العلم والتقنية والتصنيع ولذا فإن أول خطوة على المرء أن يخطوها، هي أن يجعل الناشئ يحس بالتغيير الحاصل من حوله، ومدى تأثير هذا التغيير على جميع مفردات حياته، وأفاق ذلك التغيير، وضرورة حسن التصرف حياله." (1).

الملاحظ على سلوكيات الناس في بلادنا العربية والإسلامية حيال التغيير أنهم أصبحوا يصرون عن غير إطار محدد، ولم يعد لهم نموذج واضح - يجمع بين ثقافتهم والثقافة المعاصرة - يستطيعون وفق أصوله أن يرسموا معالم ردود أفعالهم بطريقة رشيدة.

وهنا يأتي دور التوعية الأسرية المأمول وهو المواءمة بين ثقافتنا والثقافة الجديدة "وهذا الأمر ليس باليسير؛ إذ يقتضي أن نفتح عيننا على أصولنا الحضارية، وما استفدناه من تجارب وخبرات تاريخية، وعينا أخرى على الحاضر ومتطلباته الكثيرة." (2).

(1) Maxine Baca Zinn & D. Eitzen: Diversity in Families, USA, HarperCollins, 1990. pp. 425-439

(2) Ibid. p. 438

(3) جريدة الوطن عدد السادس عشر من مارس 2003 م.

(1) عبد الكريم بكار: مرجع سابق. ص 62.

(2) المصدر السابق نفسه. ص 63.

### التوقعات قبل الزواج ودورها:

التصورات الخاطئة عن "مفهوم الزواج" والحياة الزوجية كالا اعتقاد بالسعادة الزوجية المتواصلة أو حياة زوجية بدون مشاكل، وبأن الزوج الذي تم اختياره هو الأمل وغير ذلك من التصورات التي تتعرض إلى هزات بعد مضي فترة تطول أو تقصر من الحياة الزوجية بحيث يصبح كل شريك يظن أن شريكه قد تغير ولم يعد الذي يعرفه أو توقعه أو أراد شريكا ويشعر بالتالي أنه قد تعرض لعملية خداع وغش أو وقع ضحية تحايل.

وفي الحقيقة أن الذي حصل هو أن كل شريك أو طرف اكتشف "الشخصية الحقيقية" للشريك الآخر والتي هي شخصيته الواقعية غير الصورة المثالية التي تكونت في أحلام الشريك قبل الزواج لذا نسمع جملة "لم أكن أتوقع هذا!" أو "أن هذا لم يخطر لي على بال!" ونحو ذلك.

هناك مجموعة حقائق تغيب عن أذهان كثير من المقبلين على الزواج منها اختلاف طبيعة وتجربة وطريقة تفكير كلا من الرجل والمرأة والتي تنتج اختلافات في العلاقات وطريقة التعامل مع الآخر والتي تجعل توقعات قبل الزواج عن شريك العمر لا تتحقق وقد تؤدي إلى عدم التناغم في العلاقة.

فالزواج "هو أقوى رابطة تجمع بين غربيين داخل أقدم مؤسسة اجتماعية عرفها التاريخ، ومع كل الحب والرحمة والمودة والحاجة العاطفية والحاجة إلى بناء أسرة مستقلة فإن المشكلة الحقة تكمن في أن كلا من الزوجين مهما كان حجم الرابطة التي بينهما يأتي من بيئة مختلفة، وربما من ثقافة اجتماعية مختلفة، وحتما فإنهما مختلفان في الطباع والذكاء والاهتمامات ودرجة الانتماء إلى الأهل أو إلى الطبقة، وبالتالي فكل منهما عاداته وسلوكياته وقدراته."<sup>(1)</sup>

ابتداء إن صورة الزواج عند المقبلين عليه من الشباب والشابات مهمة للغاية، ففقد فوجئت في أحد دروسي لمقرر التوعية الأسرية عندما سئلت الطلبة عن مفهوم الزواج لديهم فأجابني أحدهم: إنه شيء يشبه القمار! فنظر بعض الحاضرين إليه بشكل فيه استغراب فقلت فوراً: لعلك تقصد أنه يعتمد على الحظ وأن نسبة الخسارة فيه أعلى من نسبة الربح؟ فأجاب: نعم. فقلت للجميع: هذه وجهة نظر تعبر عن فهم خاص للزواج وقد يحمل عدد لا بأس به من الآخرين هذا الرأي نفسه ولكن التحدي الحقيقي هو كيف نستطيع أن نزيد من نسبة الربح ونقل من نسبة الخسارة؟ .

كما أن نظرة كل من الطرفين لمفهوم الزواج بما يحمله من توقعات خيالية قد يشكل أكبر وأهم عائق في طريق الحياة الزوجية فقد قالت بعض الفتيات اللاتي تزوجن واكتشفن الحقيقة والتي هي خلاف ما توقعنه قبل الزواج حول مفهومهن للزواج: "إننا جميعاً وقبل الزواج رسمنا في خيالنا أن الحياة بعده ستكون أحلى وأجمل مما هي عليه، بل تهادى البعض منا فاختصر كل معاني وغايات الزواج في جملة "حل جميع مشاكلي" فكل المشاكل والهموم ستختفي بعد الزواج: فلا أب يتجبر ولا أخوة يتحكمون ولا أم منشغلة ولا حرية مسلوطة ولا رغبات مدفونة ولا حاجات مكبوتة - إنما بالتأكيد - راحة وانطلاق وأمنيات تتحقق، إنها السعادة ولا شيء غير السعادة"<sup>(1)</sup>.

<sup>(1)</sup> www.balagh.com

<sup>(1)</sup> www.al-farha.com

ما هي هذه الأمنيات؟ وما طبيعة هذه التوقعات؟ وهل يمكن تحقيقها كلها أو حتى بعضها على الوجه الأمثل؟ .  
 "بعض هذه التوقعات تكاد تتحدد في الدعم المعنوي، الرفقة والشرابة، الدعم المادي أو المساعدة والمساهمة الواضحة.  
 ولتحقيق كل هذه التوقعات أو بعضها يكون الأمر مرهقا للغاية، أحيانا.

وخلافات السنة الأولى تحديدا وما يليها من سنوات بشكل عام تتمركز حول ذلك الاختلاف بين التوقع وما هو متاح،  
 بين المتوقع وأداء كل من الزوجين كل قدر طاقاته، وهذا الفارق يؤدي بما لا يدع مجالا للشك إلى انزعاج، إحباط، ضيق،  
 وإحساس بالتوهم وخداع الأشياء، وعندما لا تتحقق توقعات الزوجين، ربما أصيبا بالتعاسة والاكتئاب"<sup>(2)</sup>.

وقد اعتبر الأستاذ جاسم المطوع التوقعات غير المتوقعة العائق الأول في طريق نجاح الزواج وذلك في كتابه "10  
 عوائق في طريق الزواج الناجح". وقد ذكر نماذج لإجابات رجال ونساء سئلوا لم تزوجتم؟ فكان من تلك الإجابات: لأن  
 الزواج هو نصف الدين، أو لأن الزواج سنة الحياة، أو لكي أحصن نفسي، أو الإجابة على السؤال بكل بساطة بالقول: لا بد  
 أن أتزوج.

أما نماذج إجابات بعض النساء فكان منها: لأن الزواج ستر، أو لكي أهرب من سيطرة والدي، أو تزوجت لأعيش في  
 حب وعاطفة وحنان مع الطرف الآخر أو تزوجت لأتحدث مع شريك حياتي!

يتساءل الأستاذ جاسم ماذا سيفعل كل من الطرفين لو لم يحقق الطرف الآخر توقعاته؟ هل سيكون الزواج ناجحا أم  
 سيفشل؟

ثم يؤكد على أهمية أن تكون التوقعات واقعية لا من عالم الخيال، وعلى المتوقع أن يهيئ نفسه لعدم تحقق ما توقعه،  
 أو أن يأخذ بيد الطرف الآخر ليحقق له آماله وتوقعاته.

وذكر من الأمور العلاجية لهذا العائق أن يتحدث الزوجان معا عن توقعاتهما حتى لا يصطدما في بداية الطريق، وأن  
 يتحاورا فيما بينهما، وأن تكون المصارحة الزوجية رائدهما في حياتهما الزوجية، فإن ذلك سيقبل من الصدمات الزوجية.<sup>(1)</sup>  
 ثانيا: الصورة التي يحملها كل شريك عن شريكه المقابل هي عبارة عن مجموعة توقعات.

ومن أهم المصادر لتكوين الصورة عن الطرف الآخر هي ما كتب عن صفات الزوج والزوجة في بعض الكتب التي  
 لها علاقة بالموضوع وما كتب عن صفات الزوجة أكثر وأعم وهو عبارة عن توصيف أولئك المؤلفين للزوجة الصالحة  
 والتي هي أقرب إلى الندرة وأبعد ما تكون عن الواقع ولا سيما ما أضيف إليها من وصايا الأمهات لبناتهن. يصف بعضهم  
 الزوجة الصالحة كالتالي: "ناظرة في عيبيها مفكرة في دينها، مقبلة على ربها خفي صوتها كثير صمتها، لينة الجناح،  
 عفيفة اللسان، ظاهرة الحياء، ورعة عن الخناء، واسعة الصدر، عظيمة الصبر، قليلة المكر، كثيرة الشكر، نقية الجيب،  
 طاهرة من العيب، حبية كريمة رضية زكية رزينة نجبية، سهلة الخلق رقيقة بريئة من الكذب، نقية من العجب، تاركة

<sup>(2)</sup> [www.balagh.com](http://www.balagh.com)  
<sup>(1)</sup> [www.almutawa.info/ara/article](http://www.almutawa.info/ara/article)

للقدى، زاهدة في الدنيا، ساكنة، جازمة ستيرة حقرة "هكذا" لا متفاكهة ولا متهتكة، قليلة الحيل، وثيقة العمل، رحيمة القلب، خليصة الود، إن زجرت انزجرت وإن أمرت انتمرت" إلى آخر الصفات المذكورة في صفحة كاملة (1).

فإذا انتقلنا إلى مجتمعنا المعاصر وجدنا الصورة قريبة من السابقة حيث تصف زوجة صورة المرأة لدى زوجها وغيره من بعض الرجال على أنها هي من تطيع زوجها وتعمل جهدها في إرضائه بل عليها أن تتفانى في ذلك حتى لا يعجل عليها بالزوجة الثانية" (2).

كيف يتم تشكل صورة المرأة عند الرجل؟ أو صورة الرجل عند المرأة؟

"إن صورة المرأة لدى الرجل في وجدانه جزء من رأيه المتكون عبر طفولته ومراهقته ولن تستطيع الزوجة في أيام تغيير نظرتة إلى المرأة.

ومن المعروف أن الرجل الشرقي تقبع في أعماقه أمه التي يريد أن تتكرر في صورة زوجته ولكن بشكل عصري مئة في المئة وتتوقف رتوش هذه الصورة على مستوى وعي الرجل.

أما صورة الرجل في وجدان المرأة فهذا حديث ذو شجون حيث أن الفتاة في المجتمعات العربية وفي ظل الحواجز بينها وبين الأم في المواضيع الحساسة المتعلقة بزواج المستقبل فإن الفتاة لا تعرف من عالم الرجل سوى ما تقرأه في الروايات أو عبر القنوات الفضائية وهي بالتأكيد ليست الصورة الحقيقية والواضحة للرجل" (1).

ويرى الدكتور مأمون المبيض أخصائي الطب النفسي بأن بعض المفارقات البسيطة في نشأة الزوجين قد تكون سببا في اختلاف نظرة كل منهما إلى الآخر، ذلك أن الزوجين عادة ما ينشآن في بيئة أسرتين مختلفتين، ومن الطبيعي أن يكونا قد مرا في طريقة تربية وتدريب مختلفتين، عدا عن اختلاف تجارب الحرية بينهما، فقد يكون الشاب قد أعطي حرية أكبر مما أعطيت الفتاة، كما أن اختلاف الشخصيتين، والمستوى التعليمي بينهما قد يفرض قيام مثل هذه الخلافات الزوجية، ويوجه الدكتور مأمون أنظار الجميع إلى أنه عندما يفهم المرأة والرجل طبيعة الفروق بينهما ويحترمان هذه الفروق فهناك فرصة حقيقية لقيام حب قوي بينهما (2).

ويؤكد الدكتور المبيض على ضرورة فهم الزوجين لأسرة كل منهما، مثل من كان يكسب قوت الأسرة، ومن كان يتخذ معظم القرارات، ومن يخطط لأنشطة الأسرة، ومن المسؤول عن صرف المال، ومن أكثر سعيا للدخار، ومن يحضر الطعام، ذلك أن الأدوار التي يلعبها كل فرد في الأسرة، تنعكس على قناعات الزوجين، كذلك فإن للجو العام داخل الأسرة تأثير على رسم مفاهيم الزوجين، من حيث إن كان هناك تماس ومداعبة في الأسرة، وكيف كان تلاؤم أفراد الأسرة مع بعضهم، وكيف كانت تقضى العطل والإجازات، وماذا كان الموقف من اللغة، والكلمات البذيئة وغيره (3) وفي الحقيقة إن

(1) عمر رضا كحالة: **الزواج**، بيروت، مؤسسة الرسالة، 1405 هـ/1985 م. ج 1 ص 282.

(2) جريدة الوطن السعودية عدد 16 مارس 2003 م.

(1) [www.nahed.net/wa4.html](http://www.nahed.net/wa4.html)

(2) [www.dubailand.gov.ae/Arabic/news2003-july-12.htm](http://www.dubailand.gov.ae/Arabic/news2003-july-12.htm)

(3) [www.dubailand.gov.ae/Arabic/news2003-july-12.htm](http://www.dubailand.gov.ae/Arabic/news2003-july-12.htm)

إقامة دورات تدريبية لتوعية الأسرة كالتالي يقيمها الدكتور مأمون ونقل عنها المقطعات السابقة هي من أنجع الوسائل في تغيير بعض السلوكيات السلبية والتصرفات غير المقبولة والوقاية من بعض الاختلافات أو تخفيف حدتها، والتوصل إلى مهارات أفضل في التعامل بين الزوجين مما يقودهما إلى تفاهم أفضل في حياتهما الزوجية.

ويرى بعض الدارسين لهذا الموضوع أهمية "عدم التركيز على الكمال، ولا على ما يجب أن تكون عليه الأشياء، ولكن بدلا من ذلك يتم التركيز على المتاح، وعلى أقصى ما يمكن الإتيان به وأدائه في إطار العلاقة الزوجية. مع تجنب التوقعات الزائدة عن الحد من الطرف الآخر، وتجنب التوقعات الخيالية.

ومع ذلك ينبغي أن ندرك أن بعض التوقعات في الأمور الزوجية شيء مهم للغاية وصحي لزواج سعيد، وكحل ينصح كلا الطرفين بمشاركة الطرف الآخر في رسم تلك التوقعات بكثير من الواقع فقد يتفقا أو يختلفا، ولكن عليهما محاولة الوصول إلى صيغة مقبولة لكليهما، صيغة لا تغطم حق أيٍ منهما وتضيف إلى العلاقة الإنسانية وتثري العلاقة الزوجية إلى أقصى حد. وعلى الطرفين توقع بعض الخلاف والاختلاف في الرأي، وتقبل هذا، فالعلاقة الخاصة بين الزوج والزوجة تسمح بالاختلاف وتسمح بالتنوع وتسمح بالتناغم والتلاقي والتوحد.

ومن الأمور المهمة البوح بذات الصدر للطرف الآخر وأن ينفس كل عن انفعالاته، مع محاولة -قدر الإمكان- إزاحة سوء الفهم والبحث عن الإيجابيات والسعي إلى الترويح. (1)

لذا يعتبر الدكتور حسّان خلدون - استشاري الطب النفسي - الحوار معيارا للنضج والتوازن لأطراف العلاقة وما يجري فيها، كما يعتبر دواء فعالا يشفي أمراض العلاقة واضطرابها.

بينما اعتبر في المقابل الدكتور سعيد الغامدي أستاذ علم الاجتماع بجامعة الملك عبد العزيز الصمت بين الأزواج عندما يختلفان وإيثار عدم الحديث مع بعضهما ربما منعا للاشتباك ظاهرة سلبية داخل الأسرة، والتي لا شك أن لها انعكاساتها السلبية أيضا على الأسرة كلها، وعلى الصغار فيها بشكل خاص. ويرى أن أسوأ ما يمكن أن تتعرض له الأسرة في هذه الحالة هو انعدام التواصل الفكري وخلق الحوار الهادف البناء والذي يخرج كل علامات الاستفهام بين الجميع من أعضاء الأسرة (1).

ومن الضروري إدراك أن الزواج مرحلة تحتاج إلى كثير من الصبر وكثير من التفهم لشخصية الآخر الذي هو عبارة عن مجموعة من القيم والاتجاهات المبنية في أسرته والتي يمكن أن تكون مختلفة عن قيمها واتجاهاتها "الزوجة". هذا الاختلاف لا يستهان به لأن الزواج عبارة عن تكامل اثنين وليس اندماجهما أو انصهارهما إذ كيف يمكن صهر إنسان له كيان وشخصية مستقلة في كيان إنسان آخر.

(1) [www.balagh.com](http://www.balagh.com)

(1) جريدة الوطن 16 مارس 2003 م

لكن يمكن بشيء من الوعي إحداث عملية التكامل التي من أول أبعدياتها أن تفهم المرأة والرجل طبيعة الاختلافات بينهما. هذا التفهم هو بداية طريق التأقلم والتوافق.<sup>(2)</sup>

إن الزواج لا يلغي شخصية الزوج أو الزوجة بل يستخدمها ويطورها لخلق نظام ومؤسسة جديدة تتمتع بالصحة النفسية والعافية التي تضمن الاستمرار. فإذا اضطرب أحدهما أثر في الآخر، وإذا اكتنبت أحدهما أثر في الآخر، وهكذا كان من الصحي والصحيح الانتباه إلى حال كل من الزوجين على حدة، والزواج ككيان على حدة لضمان تفادي عواصف السنة الأولى وكوارثها!<sup>(3)</sup>

إن التعرف على المشاكل الممكنة قبل الزواج وكيف يمكن التعامل مع التوقعات التي لم تتحقق لا شك تساعد الأزواج للاستعداد للتحديات التي يمكن أن تواجه مؤسسة الزواج، ويمكن للطرفين حينئذ أن يتعاونوا في بناء تلك المؤسسة على الشكل اللائق والذي يتماسك ويقوى مع مرور الأيام والأعوام.

" والأخوة الإنسانية تقتضي التعاون والتضامن في التغلب على مشكلات الحياة الصعبة والمتنوعة والمستمرة، والتعاون مظهر تحضر وتمدن، ومردوده شامل يشمل الذكر والأنثى.

وأساس التعاون: هو وجود ظاهرة الود والتآلف والتراحم والمحبة، فلا تتحرك أنماط الحياة وتدور عجلتها إلا بهذه الروح الطيبة بين الرجال والنساء"<sup>(1)</sup>

#### كلمة عن تعدد الزوجات<sup>(2)</sup>:

جاء الإسلام ليوجه حياة أتباعه نحو الأفضل والأكمل على كافة المستويات الحياتية. ومن تلك المستويات: الحياة الاجتماعية.

فجاءت تشريعات الإسلام الحكيمة والعادلة لتنضبط السلوك الاجتماعي وتكيفه في ضوء مقاصد الشريعة وتوجهه لتحقيقها.

وتفاعل المسلمين واستجاباتهم لتلك التعاليم والإرشادات الإلهية عبر الوحي المنزل حصل أعظم تغيير اجتماعي في تاريخ البشرية.

فأعيدت للمرأة مكانتها وكرامتها أما وبناتنا وزوجة وقريبة، وضبط الزواج كسلوك اجتماعي.

وكان الزواج مقيدا بالأعراف والتقاليد، وكان يكتنفه الخلل ومن ذلك تعدد الزوجات إلى عشر زوجات.

فجاء الإسلام ليقر التعدد من حيث المبدأ وحدد السقف الأعلى للتعدد بأربع، مع الأمر بالعدل والإنصاف في المعاملة والنفقة وعدم التحيز والظلم.

<sup>(2)</sup> [www.nahed.net/wa4.html](http://www.nahed.net/wa4.html)

<sup>(3)</sup> [www.balagh.com](http://www.balagh.com)

<sup>(1)</sup> وهبة الزحيلي: مصدر سابق، ص 14.

<sup>(2)</sup> بعض أفكار هذه الجزئية كانت ضمن ورقة بحثية تقدمت بها لاستكمال متطلب مادة البحث الاجتماعي وذلك لنيل درجة الدبلوم في الدراسات الإنسانية بالجامعة الإسلامية العالمية سنة 2000م.

وسارت المجتمعات الإسلامية فترة كبيرة من الزمن على التكيف مع هذا النمط من السلوك الاجتماعي.

إلا أن ما أصاب المجتمعات الإسلامية في القرون الأخيرة من محن وويلات وضعف وتفكك وتمزق اجتماعي وسياسي وما تعرضت له من استعمار عسكري مصحوبا بغزو ثقافي وفكري أثر سلبا على واقع الحياة الاجتماعية والأسرية.

وزاد في الأمر سلبا: حصول الثورة المعلوماتية وما صاحبها من تطور في أنظمة الاتصال حيث استجدت مصادر جديدة ومتنوعة للثقافة، جعلت المسلمين يصابون بالصدمة الثقافية وهم في عقر دارهم وقراهم وأريافهم والتي لم يكونوا قد تهيأوا لها عقليا ولا فكريا ولا نفسيا.

فكان الإعجاب بكل قدمته لهم تلك الوسائل والانبهار بكل ما أنتجته "هوليوود" مما نتج عنه التهميط الاجتماعي والتقليد لثقافة الآخر وتفضيل سبل حياته.

فأحدث كل ذلك تصدعا وشرخا في المجتمع الإسلامي وأوجد أنماطا جديدة وتغيرا اجتماعيا في شتى المجالات وعلى كافة الأصعدة وإن كان الأمر نسبيا.

ومن ضمن الأمور التي نالها ذلك التغيير قضايا العلاقات الاجتماعية ولا سيما الزواج وعلى وجه الخصوص الموقف من تعدد الزوجات.

وأثيرت مسألة التعدد والتي في جانب منها كانت ردة فعل حيث أن من الشبهات التي أثارها المستشرقون وغيرهم الهجوم على الإسلام من هذا الباب الحساس.

فبدأ المثقفون المسلمون يردون ويدافعون. وازداد صوت القائلين بضرورة التعدد والدعوة إليه فانقسم المجتمع بين مؤيد ومعارض وبين مستجيب وراج ينتظر ولا يفصح، وسالك لدروب ملتوية كالزواج العرفي والزواج بنية الطلاق والزواج بالخدمة خلسة وغير ذلك.

والنقاش هنا لا لأصل الموضوع وإباحة الشريعة للتعدد، ولا للثقافات التي قبلت بالتعدد وأصبح التعدد أمرا واقعا مقبولا، وإنما ينصب النقاش على سوء الفهم وسوء التطبيق لهذه المسألة.

فإن قصر النظر، وعدم إدراك مقاصد الشرع، والتعجل في موضوع التعدد بناء على مجرد الرغبة والانسحاق وراء العواطف أدى إلى وجود مشاكل اجتماعية أذكر منها على سبيل المثال:

1. تفكك الأسر وازدياد عدد حالات الطلاق في الأسر التي حصل فيها التعدد.
2. تعرّض الأطفال للضياع والحرمان من الرعاية ووقوعهم ضحية نزوات آبائهم.
3. وقوع الخصام والفصام بين الأسر.
4. ضعف العلاقات الأسرية، وازدياد الخصومة بين الأزواج في الحالات التي وقع فيها التعدد ولم تنته بالطلاق.
5. انتهاء حالات كثيرة من الذين عددوا بالزوجة الواحدة، حيث تنتهي بطلاق أو انفصال واحدة منهن.

وإذا كان الفشل قد حصل على مستوى الزواج الأحادي فما بالك بالزواج المتعدد، وهذا يستدعي تضافر الدراسات الاجتماعية - الشرعية لمعالجة الموضوع قبل استفحاله. وأفضل من يقوم بالدراسة من كان له حظ في علوم الشريعة ونصيب من الدراسات الاجتماعية. وذلك للتعرف على زوايا المشكلة عن قرب، واستطلاع الواقع الاجتماعي الذي يعكس المشكلة، والإلمام بسلبيات الموضوع وأسباب ذلك بغية إدراك واستيعاب المشكلة، ومحاولة الوصول إلى حلول عملية لها، ورفع مستوى الوعي لدى أفراد المجتمع الإسلامية ليدركوا مدى إمكانية تطبيق التعدد كحالات فردية وسبل ذلك، وكيفية تفادي المشاكل الاجتماعية المترتبة عليه وحتى لا ينتهوا إلى حيث بدعوا مع فارق التكاليف.

اعتبر بعض الباحثين عدم التجانس النفسي والأخلاقي من أهم أسباب الخلافات الزوجية.

يقول: إن الحقوق التي تثبت للخاطب عند اختيار خطيبته، تثبت للخطيبة عند اختيار خطيبها، وما ذلك إلا ليحدث التوافق النفسي والأخلاقي، وتلتقي الأرواح على المحبة.

إلى أن يقول: إن الاختلاف النفسي يجعل لكل من الزوجين نظرتة الخاصة إلى مختلف الأمور التي تعترضهما يومياً. وستكون هناك معركة مستمرة بين الزوجين يحاول كل منهما أن ينتصر على الآخر، وأن يفرض عليه أخلاقه وسلوكه. وكلما طالت المعركة زادت شقة الخلاف، وانعدم التفاهم، وتأججت نار البغضاء حتى تصل إلى درجة يستحيل على المياه أن تعود إلى مجاريها.

فهناك من الرجال والنساء من لا يعطي لهذا السبب قيمة كبيرة، ولا يوليه أهمية تذكر، ويدعي أن الرجل يستطيع ترويض امرأته شيئاً فشيئاً، ومع الزمن تزول الفوارق النفسية والأخلاقية بينهما، بحيث تنطبع بطباع زوجها وتصبح مشابهة له أو قريبة منه.

وما ينطبق على الزوج ينطبق على الزوجة من حيث ترويضها لزوجها وتوجيهه بما يوافقها من الفكر والعمل والسلوك.

قد يكون هذا صحيحاً، ولكنها حالة شاذة، وليست عامة، والقياس يكون على العام وليس على الخاص - والشاذ لا قياس عليه - .

لهذا: نرى أن درجة معينة من التوافق والتجانس النفسي والسلوك التربوي يجب أن يتحقق بين الخطيبين، وإلا فالزواج مهدد بزوابع الخلافات (1).

**أضواء على دور التوعية الأسرية في مواجهة التحديات الأسرية المعاصرة:**

لقد أصبح التخطيط الأسري حقا من الحقوق الإنسانية باعتماده رسمياً في الأمم المتحدة سنة 1965م. حيث جاء في نص التوصية: "يحق لكلا الزوجين الإطلاع على كل ما له علاقة بالمعلومات التربوية بخصوص التخطيط الأسري" (2).

(1) شوقي عبده الساهي: الخلافات الزوجية ومعالجتها في الشريعة الإسلامية، القاهرة: مكتبة النهضة المصرية، 1421 هـ / 2001 م ص ص 22-23.

(2) John Eekelaar and Peter Sarcevic: **PARETHOOD IN MODERN SOCIETY**, Dordrecht, 1993. p. 191.

ويتساءل صاحب كتاب في التوعية الأسرية: هل يتحصل الناس على تدريب لكي يحققوا النجاح في هذا النشاط المحوري في الحياة؟ والإجابة لا بكل أسف.

ثم يعقب بقوله: إذا كان يتعين على الذي يقص شعر الناس وعلى من يريد قيادة سيارة أن يتحصل على شهادة يثبت فيها حدا معيناً من المهارات قبل أن يسمح له بمزاولة هذه النشاطات بحرية. فلماذا لا نجد اهتماماً اجتماعياً بضرورة التوعية الأسرية بشكل منظم مع أنه أمر يعني معظمنا؟<sup>(3)</sup>.

وقد صار تعليم مفهوم الزوجية مطلباً لكثير من الناس لعلاج هذه الظاهرة فيها هو أحد رجال الأعمال يرى في مقابلة أجريت معه حول هذا الموضوع "أنه من الضروري أن تتضمن مناهج التعليم في المدارس والجامعات توعية الفتيات والفتيان تدريجياً بحسب المراحل التعليمية بمفهوم العلاقات الأسرية"<sup>(4)</sup>.

نظراً إلى حاجة المجتمع المتزايدة للتوجيه والتوعية من أجل بناء مجتمعات أكثر تعاوناً وتناغماً، بدأ تدريس مادة التوعية الأسرية أو التنشئة الأسرية أو التربية الوالدية على خلاف في التسمية في كثير من الجامعات في العالم في العقود الأخيرة. وللجامعة الإسلامية العالمية بماليزيا نصيب وحظ وتجربة في تدريس هذه المادة على مستويين:

**الأول:** كمقرر دراسي اختياري على أمل أن يكون متطلباً جامعياً قريباً، حيث بدأ تدريس المقرر في أواخر سنة 1996 وأوائل سنة 1997م بقسم الدراسات العامة بكلية معارف الوحي والعلوم الإنسانية.

**الثاني:** كمقرر لا صفّي أو لا منهجي تتم دراسته بمعدل ساعة واحدة في الأسبوع لمدة عشرة أسابيع. وهو بهذا الاعتبار متطلب جامعي لكل من يلتحق بالجامعة ابتداءً من سنة 2003م.

ويركز المقرر على أمور أهمها: مفهوم الأسرة والزواج في الإسلام، أسس اختيار الزوج أو الزوجة، القضايا الفقهية المتعلقة بعقد النكاح، حقوق الزوج والزوجة، مهارات الاتصال بين الزوجين، مهارات تربية الأولاد، أسباب وكيفية التعامل مع الضغوط النفسية وسبل علاجها وغير ذلك من القضايا.

تدريس التوعية الأسرية قائم على أن بناء الأسرة السعيدة يجب أن يبدأ من قاعات الدرس بحسن إعداد الطلاب لمستقبل زوجي أفضل، وهو قائم على أن مؤسسة الأسرة تدار وفق مهارات معينة يمكن تعليمها وتعلمها.

والاهتمام بهذا الموضوع يعد من أولويات الدراسات الأسرية في ماليزيا ودول المنطقة حيث عقد مؤتمر حول تحسين وضع الأسرة في 2-5 من نوفمبر 1999م وتم نشر مجموعة البحوث القيمة المقدمة إلى المؤتمر<sup>(1)</sup>.

وأريد أن ألقى الضوء على جزئية من جزئيات مقرر التوعية الأسرية لبيان أهميته وحاجتنا إليه كمقرر دراسي جامعي، ألا وهي مهارات الاتصال بين الزوجين.

Jane B. Brooks: PARENTING, Mayfield, California. 3<sup>rd</sup>. Edition. 2001. Preface. <sup>(3)</sup>

<sup>(4)</sup> جريدة الوطن السعودية الصادرة في 16 مارس 2003م.

<sup>(1)</sup> Family Wellbeing: Learning from the past for the betterment in the Future. ISI Publications KL. 2001.

يتبين لنا مما عرض سابقا من تحديات تواجه الأسرة أهمية ودور مهارات الاتصال بين الزوجين. فمعتكرك الحياة الزوجية - بالحال الذي وصفته وقررتة هذه الورقة - مرشح للمناقشات والتفاوض والحوار كل لحظة ووقت وحين. وبدون إتقان لمهارات الاتصال - والتي لا تمتلك إلا بالدراسة والتعلم .

يصح من المستحيل تحقيق تفاهم أو الوصول إلى نتائج ترضي الطرفين، وهو مقصد عظيم يحرص كل عاقل من الطرفين على تحقيقه لتكون العلاقة الزوجية في وئام وسلام وتحقق مفهوم "السكن" الذي أشارت إليه الآية الكريمة أعلاه ولتتمكن الأسرة من البقاء على التلاحم والوحدة في مواجهة التحديات المختلفة. والغالب في مثل هذه الحال وفي ظل غياب أسس الحوار وتقنيات الاتصال هو حصول سوء التفاهم والخلافات والمصادمات والمشاجرات العائلية التي تنتهي بفيض من المشاعر والانفعالات السلبية وترشح العلاقة الأسرية لمزيد من الانتكاسات والمشاكل.

إن مهارات الحديث، والاستماع للطرف الآخر، وإتقان لغة الإشارة واستعمالها بشكل إيجابي وتفادي استعمالها بشكل سلبي، ومحاولة تفهم مشاعر الطرف الآخر وعواطفه، وإعطائه الفرصة - بل دفعه - للتعبير عما يجول في ذهنه وفسح المجال له لبيان ما يريد إيصاله من رسائل تعبر عن وجهة نظره، وإيجاد الأجواء الإيجابية للحوار والنقاش والتفاوض؛ كل ذلك من شأنه أن يقلص الفجوات، ويقلل من سوء التفاهم، ويوجد أرضية مشتركة لحل الخلافات والمشاكل، ويعمل على إتاحة الفرصة للتخلص من الضغوط النفسية. ومن الكتب المهمة التي اطلعت عليها في هذا المجال كتاب لمجموعة مؤلفين بعنوان: "فهم الاتصال العائلي"<sup>(1)</sup> وغيره كثير مما لا يتسع المجال هنا لتناوله.

وبذا أرجو أن تكون الورقة قد قدمت إسهاما متواضعا، وأرست لبنة في صرح الأسرة النموذجية الواقعية التي ينشدها كل أفراد مجتمعاتنا.

### توصيات:

توصي هذه الورقة بناء على النتائج التي توصلت إليها بما يلي:

1. ضرورة تدريس مادة التوعية الأسرية في كافة الجامعات بالدول العربية والإسلامية كمتطلب جامعي، مع الإفادة من خبرات الآخرين سواء الإسلامية أو الغربية، وتطوير ذلك المقرر بشكل منهجي علمي جاد يأخذ بأيد طلابنا وطالباتنا نحو غد أكثر إشراقا وأملا وتزويدهم بالمهارات اللازمة والمعارف التي تؤهلهم لتأسيس وتفعيل مؤسسات أسرية قادرة بإذن الله على مواجهة التحديات المعاصرة وتجاوزها بنجاح.
2. توجيه الدراسات الاجتماعية بكافة فروعها: النظري والعملي والميداني، بجامعاتنا لدراسة الظواهر الاجتماعية والتي تنطلق من الواقع وتؤسس عليه، مع ضرورة تطوير مناهج البحث ورفع كفاءة الباحثين، والدمج بين العلوم الشرعية والإنسانية لتؤتي تلك الدراسات ثمارها ويعم نفعها المجتمع.

(1) USA: Gorsuch Scarisbrick, 199". Janet Yerby & others: Understanding Family Communication.

3. مطالبة الوسائل الإعلامية وخاصة التلفاز في بلادنا أن يكون لها دور فعال وإيجابي في معالجة مشاكل المجتمع لا العمل على زيادتها، وإن كان بدون قصد. ويكون ذلك بأمر منها: تطوير أهداف الإعلام لتتجاوز الترفيه والتسلية، مراجعة البرامج الحالية وتطويرها وحذف ما يمكن أن يسبب أثارا اجتماعية سلبية، إنشاء محطات فضائية تعليمية تناقش وتعالج مشاكل المجتمع وتساعد على بناء مجتمعات قوية متماسكة.

4. إيجاد واستحداث آليات اجتماعية تربوية تنير الطريق أمام المقبلين على الزواج مستقبلا بحيث تزودهم بالمعلومات الضرورية واللازمة عن الزواج ومؤسسة الأسرة وتحفظ لهم حقوقهم، وتعينهم على اتخاذ القرار المناسب في اختيار شريك العمر.

*إقامة المزيد من الندوات والمؤتمرات واللقاءات العلمية لدراسة ومناقشة التحديات الأسرية وإيجاد الاستراتيجيات المناسبة للتعامل معها.*